

# «رحلة بنت زقطوطة» من الإسكندرية إلى سان فرانسيسكو

## كاتبة مصرية تدون مشاهداتها ومغامرات رحلتها إلى أميركا



المرأة يمكنها تأليف رحلات أكثر متعة (لوحة للفنانة هيلدا حيارى)

فرانسيسكو، فتكشف لنا أساليب الحياة في تلك المدن وأبرزها، مثل حياة المثليين وتجاربها مع بعضهم، وتكشف أن الرجل المحنول يعرف أكثر منها في شؤون المرأة وزينتها، وأن المواعيد هناك غير مقدسة كما يعتقد البعض منا، وأن هناك اهتماماً بالقضية الفلسطينية، تفعل في تلك الخيمة المقامة أمام مبنى البيت الأبيض الأميركي في واشنطن، وتؤكد أن الشعب الأميركي من ذوي الأصول الأفريقية شعب طيب جدا، ذاق الأمرين قبل الاعتراف الرسمي به.

### حكايات وتقاطعات

عجبني إصرار الكاتبة على زيارة مكتبة الكونغرس الأميركي التي تعد أكبر مكتبة في العالم، ففي المرة الأولى ذهبت بعد ميعاد الإغلاق، فلم تتمكن من الدخول، وفي المرة الثانية ذهبت قبل إقلاع طائرتها بزمن ضئيل جدا، ولكنها أصرت على الزيارة ونجحت في ذلك خلال 20 دقيقة، وتركت توقيعها في دفتر الزيارات، والتقطت الصور، فما يشغلها هو المكتبات وليس السياسات.



منى لملوم تملأ كتابها بالأحكام العامة المطلقة وتقدم لنا حقائق ومشاعر وملاحظات وتجارب في أدب الرحلات

ومما حزننت له كقارئ ضياع اللوحة البورتريه التي رسمها لها أحد الرسامين، فكان يراقبها ليرسمها، وهي تراقبه لتفهم، ومع ذلك لم تعجبها لونها الجديدة، وفهم الرسام ماذا تريد لصاحبها اللوحة، فرسمها وفرحت بها، ولكنها ضاعتها -ولم أدر كيف- بعد أن احتفظت بصورتها على جهاز الجوال. في مقال بعنوان "اغتناب" كتبت إحدى السيدات عن حادثة اغتنابها على يد أحد طلابها قائلة "ما لم أتصوره أن يقوم أحد طلابي بما قام به، لذلك اتخذت القرار بارتياح، ولست نادمة عليه"، أما القرار فهو إجراء عملية جراحية لتصغير حجم الصدر، وهو ما أشار عليها زوجها ففرضها عندما علم بما حدث.

شؤون التبادل الثقافي بالاقصالية العامة الأميركية في الإسكندرية بقبول برنامجها (الذي لم نعرف ما هو ولم تفصح لنا عنه خلال صفحات الكتاب سوى أنه برنامج تبادل ثقافي) وتصف لنا "اللحظة" التي وقعت فيها، فتطلق أحكاماً قطعية وحاسمة ومطلقة، مثل أن السادات هو أعظم قائد مصري في العصر الحديث، هل لأنه سافر على هذا البرنامج الذي تسافر هي عليه، وأكرر أنه حتى نهاية الكتاب لم نعرف شيئا عن هذا البرنامج.

من خلال المقدمة أيضا تتقل لنا الكاتبة أحاسيس المسافر لأول مرة ومشاعره المضطربة، ونصائح الآخرين الذين جربوا السفر للبلد التي تسافر لأول مرة، والتي تتوجه إلى المطار لأول مرة في حياتها.

غير أن الكاتبة لم تفصح لنا عن الخطر وسبب الإزعاج الذي حدث للركاب وهم على متن الطائرة المتجهة من باريس (حيث كان الترانزيت لمدة 8 ساعات) إلى واشنطن. تقول "أذكر بوضوح شعوري بالخطر الشديد، خاصة حين رأيت المضيفات يسرعن الخطى دون أن أعرف إلى أين، لكنني أذكر حركاتهن المرتبكة من حولي". ونحن -كقراء- لم نعرف السبب ونسيت الكاتبة أن تذكره لنا، وكنا نود معرفته.

وعلى الرغم من أن الكاتبة تؤكد أنها تسافر للمرة الأولى، وتركب الطائرة للمرة الأولى، فإنها لم تعجب بمطار باريس ولا تصدق من يقولون إنه مطار ساحر، وكأنها شاهدت مطارات أخرى كثيرة من قبل، فتعتقد المقارنة بينه وبين تلك المطارات.

ولم أكن أحب لها أن تطلق الأحكام القطعية والنهائية في مجالات يشوبها الذوق والاختلافات الإنسانية، فأنما مثلا لم أشعر بذلك في مطار باريس الذي قصدته مرتين، فهو يضاهي أكبر المطارات في العالم. والأمير نفسه بالنسبة إلى أغاني فريد الأطرش التي انتقته الكاتبة فقالت إنها أعذب أغانيه، وأنا أرى -على سبيل المثال- أن هناك أغاني لفريد أعذب من تلك الأغاني التي ذكرت. لذا لم أكن أريد لها أن تطلق هذه الأحكام العامة المطلقة في كتابها الذي يقدم لنا حقائق ومشاعر وملاحظات وتجارب في أدب الرحلات. وإذا كانت رحلات الكاتبات السابقتي المحننا إليها -إلى عدة دول في العالم فإن "رحلة بنت زقطوطة" كانت إلى دولة واحدة فقط، ولكنها دولة فيها الكثير من الولايات مختلفة العادات والتقاليد والمناخ والاقتصاد والإجراءات، هي الولايات المتحدة الأميركية العاصمة وسان أنطونيو وسان

لأول مرة، وإلى أين؟ إلى الولايات المتحدة الأميركية. وكان الإهداء الثاني إلى أنيس منصور صاحب الرصيد الكبير من الكتب في أدب الرحلات في العصر الحديث. الإهداء الثالث كان لابن بطوطة أشهر رحالة عربي على مر التاريخ، والإهداء الرابع لابن فطومة، وتقصد نجيب محفوظ صاحب رواية "ابن فطومة"، الذي لا تخلو أعماله من أدب الرحلة التي تأتي صدى عميقا لقراءاته وتاملاته وليس لسفرياته، فهو لم يسافر خارج مصر سوى مرتين بالأمر (إلى

يوغوسلافيا 1959 واليمن 1963) وإلى لندن للعلاج 1991. وقد أطلق على روايته عنوان "رحلة ابن فطومة" ليس على إيقاع رحلة ابن بطوطة وحسب، ولكن أيضا لأن والدته اسمها فاطمة وبيلونها بـ "فطومة" على عادة المصريين، فهو إذن ابن فطومة فعلا. وفي رحلته زار خمس ديار (دار المشرق - دار الحيرة - دار الحلبة - دار الأمان - دار الغروب). وتكت أرى أن تتكفي الكاتبة بالإهداء عند "ابن فطومة"، ولكنها استرسلت لتهدى الكتاب إلى كتابها الأول "حيرة فرح" ولا أدري معنى لذلك، فكتابها الأول للأطفال يختلف كلية عن كتابها في أدب الرحلة، ثم إهداء إلى آخرين من صديقات وقراء، وبذلك يفقد الإهداء خصوصيته وفرادته التي من المفروض أن يكون عليها.

وبعد الإهداء يأتي الشكر والتقدير، وكان من الممكن أن يضم هؤلاء الذين شكرتهم إلى الإهداء بعد أن قامت بتعميمه على النحو الذي رأيناه. وفي المقدمة تشرح الكاتبة مشاعرها وترصد أحاسيسها عندما أخبرتها مسؤولة



إلى اندفاعها إلى اكتشاف حياة المدن وتاملها جمال الأمكنة والبشر وتعريفها على الثقافة والفنون والعادات والتقاليد والتقدم التكنولوجي. يعرف "أدب الرحلات" بأنه نوع من الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها إلى أحد البلدان.

### رحلة بنت زقطوطة

التزمت الأدبية منى لملوم بهذا التعريف في كتابها الجديد الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، تحت عنوان "رحلة بنت زقطوطة"، و"زقطوطة" مشتقة من "زقطة" و"زقطة" أو "زقطة" أنها ليست كلمة فصحة، فلم أجدها في القواميس والمعاجم في الجذر (زقط)، بل إن هذا الجذر غير موجود أصلا -ويبدو أنها كلمة عامية أو محكية صرف- و"الزقطة" -كما يبدو- نوع من أنواع السعادة والمتعة والحس اليقظ بصاحبها انفرج في أسارير الوجه ولعبة العينين والمرح والفرح، نقول عن الإنسان في هذه الحالة إنه "مزقطة" أو بالعامية المصرية طبقا للمنطوق "مزطاط".

ويبدو أيضا أن هذا كان شعور الكاتبة للموم عندما فكرت في السفر لأول مرة خارج مصر، وغالبا تنتاب المسافر لأول مرة مشاعر كثيرة بين الفرح والخوف، فهو فرح لأنه سيستأجر أماكن جديدة وأناسا غير أناس بلاده وسيستغير إيقاع حياته وسيرى عادات وتقاليد أخرى غير التي اعتاد عليها، ويتذوق مأكولات ومشروبات جديدة، ويسمع لغات وتكلمات وأغانى، ويشاهد معمارا وأشكالا وألوانا ومناظر، ومن هنا يأتي خوفه من المجهول الذي يقدم عليه بسعادة، ولكنها سعادة حذرة، وتفاؤل قلق، وانطلاق محسوب، وفرح مع شيء من الحرص والترقب والتوقع الذي يعكس مشاعر متناقضة تجمع بين الأضداد.

كل هذا لاحظناه وقراءناه في فصول الكتاب الصغير (112 صفحة مع بعض الصور الملونة) الذي كتبه نريد فيه المزيد من الإسهاب والشرح والتعليق من خلال فصوله الأربعة التي تفرعت إلى عدة مقالات، ولكنها مقالات شحيحة أغلبها لا يزيد على الصفحتين. أهتد الكاتبة كتابها إلى أمها (السند الدائم) التي تضاربت مشاعرها أيضا إزاء سفر ابنتها خارج مصر بمفردها

أدب الرحلة مكون أساسي وليس إضافيا في مختلف الثقافات، فمن خلال تدوين الرحلات والمشاهدات والاستكشافات والمعلومات والتواريخ وغيرها اطلعت أصقاع العالم على بعضها البعض، ونشطت حركة الترجمة وتأثرت الثقافات ببعضها البعض، فكانت الرحلات المدونة فاتحة طريق لمجتمع إنساني متكامل، لكن يلاحظ ندرة الكتابات النسائية في هذا الجنس الأدبي.

ارتبطت بالسفر سواء داخل البلد الواحد أو إلى بلاد أخرى.

كل هذا وغيره خلق ثقافة جديدة وعادات وتقاليد سياحية وغرفا سياحيا أدى إلى الاتفاق على إنشاء منظمات دولية مثل منظمة السياحة العالمية، واتفاقيات بين بلدان العالم وعقود ومؤتمرات وندوات هنا وهناك للتوعية وخلق الوعي السياحي، بل هناك مشروعات ومراكز ومسابقات وجوائز متخصصة في أدب الرحلة مثل "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياح الأفاق" وهو مركز علمي عربي غير ربحي يعنى بإحياء أدب الرحلة، وينظم الجائزة التي تمنحها "دارة السويدي" في أبوظبي سنويا لأدب الرحلة والمعروفة باسم جائزة "ابن بطوطة".

في السفر يتغير إيقاعنا، وتتغير نظرتنا للحياة، في السفر تكون الروح أكثر انفتاحا وتسامحا وتقبلا للغير. في السفر نكتشف ذاتنا كما نكتشف الآخرين.

### أدب الرحلة

لم يتخلف الأدباء عن الكتابة عن السفر والرحلات وصار لدينا أدب يعرف باسم "أدب الرحلات"، ولعرب إسهام واضح في هذا الأدب، حيث استطاع عدد منهم تسجيل رحلاتهم والكتابة عنها، ولعل أشهر هذه الرحلات كانت رحلة السيرافي بحرا إلى المحيط الهندي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ورحلة المسعودي صاحب "مروج الذهب" والمقدسي صاحب كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، ورحلة الإدريسي صاحب "نزهة المشتاق في

أحراق الأفاق"، ورحلة البيروني، ورحلة ابن جبير الأندلسي، ورحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وغيرها من الرحلات. وفي العصر الحديث نجد عددا أكبر من أصحاب الرحلة بسبب سهولة الانتقال والسفر وتطور وسائل المواصلات، رغم الحدود السياسية والعوائق الكثيرة المنتشرة بين البلدان، ولعل من أهم تلك الرحلات رحلة رفاعة الطهطاوي إلى باريس، والتي دونها في كتابه "تخليص الإبريز في تلخيص باريز"، ثم ننقل إلى رحلات السندياد حسين فوزي ورحلات أنيس منصور ومحمد ناصر العبودي وغيرهم.

ونلاحظ أن الأدب العربي القديم لم يعرف كتابا في أدب الرحلات بإقلام نسائية، أو بإقلام المرأة الأدبية عموما، أيضا لم يشهد الأدب العربي الحديث كثرة من كتب أدب الرحلات التي كتبت بإقلام نسائية، وربما تعود قلة كتابات المرأة عموما في أدب الرحلات إلى قلة أسفارها في القرون السابقة، مقارنة بما نراه اليوم، وإذا سافرت فلا بد من وجود محرم معها، الأمر الذي كان يحد من انطلاقاتها وسياحاتها الحرة المبدعة داخل البلد الذي تزوره أو تقيم فيه.

ومع تطور الحياة وانفتاح العصر وتمكين المرأة من التعليم والعمل والسفر والسياحة بدأ ينتشر أدب الرحلات الذي تبدهه المرأة. وقراءنا في أدب رحلات المرأة لكل من أميرة خواسك وكتابها "رحلات بنت زقطوطة" الذي رصدت فيه انطباعاتها عن عدة رحلات قامت بها إلى إسطنبول وإيطاليا وباريس ولندن ونيويورك والاتحاد السوفياتي السابق والمغرب وتونس وفيينا وأمستردام وسويسرا وألمانيا وغيرها.

وهناك عزة بدر وكتابها "رحلات بنت زقطوطة" الذي سيرد شائقا متسلسل لحكايات وروايات مثيرة عن بلدان كثيرة في أوروبا وأفريقيا وآسيا. وهناك الكاتبة الإماراتية عائشة سلطان التي تكشف في كتابها "هوامش في المدن والسفر والرحيل". في أدب الرحلات" عن بداياتها مع عالم السفر ثم تتطرق

أحمد فضل شبلول  
كاتب مصري

ارتبط الإنسان بالرحلة، وارتبطت الرحلة بالإنسان منذ أن خلق، وما هبوط آدم وحواء من جنتهما إلا بداية رحلة بشرية جديدة على وجه البسيطة. وحضت الأديان السماوية على الرحلة والترحال والتنقل والسفر لما فيه من فوائد جمة، ومثال ذلك قوله تعالى (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ). (الأنعام: 11).

وعلى الرغم من أن الحضارات تنمو وتزدهر في ظل الاستقرار، وتتطور بالعلم والمعرفة، فإن العلم والمعرفة قد لا يكتسبهما المرء في أحاديث كثيرة إلا بالسفر والترحال والإطلاع على أحوال الأمم والشعوب، والاستفادة من تجاربها سواء في المعيشة أو الحكم أو العلم، أو في الدين.

وقد حض الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) على السفر من أجل العلم والتعلم، وتواترت الأقوال المنسوبة إلى الأحاديث النبوية الشريفة مثل "اطلبوا العلم ولو في الصين" وغير ذلك من الأقوال.

كذلك أشار الشعراء في بعض قصائدهم إلى أهمية السفر والترحال والتغريب في طلب العلم والمعرفة والتعارف واكتساب المعيشة، فقال الإمام الشافعي على سبيل المثال:

تغرب عن الأوطان في طلب العلاء/  
وسافر.. ففي الأسفار حُسن فؤاد/  
تفرح هم واكتساب معيشة، وعلم واداب/  
وصحبة ماجد..

### اكتشاف الذات

إذا قمنا بمقارنة سريعة بين الرحلة أو الترحال والسفر في الماضي وبين الرحلات في الحاضر نجد اختلافا بيّنا، فالرحلة في القديم كان معظم القائمين عليها من التجار وطلاب العلم والجنود والدبلوماسيين أو قناصل الدول، وحاملي البريد، إلى جانب الحجاج سواء إلى الكعبة أو بيت المقدس.

أما في الحاضر فالتي جانب ما ذكر من قبل نجد الإنسان العادي الذي يسافر من أجل المتعة أو من أجل السفر نفسه ليستأجر الجديد ويلقي أناسا لا يعرفهم من قبل، ويشاهد معالم بلاد جديدة لم يعرف عنها الكثير أو عرف عنها من خلال بعض الوسائل الإعلامية ورغب في أن يراها على طبيعتها؛ لذا نلاحظ أن مكاتبات أو وكالات السفر انتشرت في العقود الأخيرة، لتلتمس الرحلات الجماعية التي لم تكن معروفة في القرون السابقة.

وكان من جراء ذلك أن أصبح السفر والسياحة صناعة لها متخصصوها وفقهاؤها، وأصبح هناك رابط أساسي بين الفنادق والسفر والسياحة، وتطورت إنشاءات المطارات والموانئ لتستوعب تلك الزيادة الضخمة في الأفواج السياحية، وقامت حياة متكاملة قوامها السياحة والسفر وبخلت الآثار ضمن عالم السياحة، وصارت تجتذب المسافرين لمشاهدتها، بل أصبحت هناك مواسم معينة مثل تعامد الشمس على وجه رمسيس في معبد أبو سمبل بأسوان في مصر، وهي ظاهرة تأتي لمشاهدتها ومعابنتها أفواج سياحية كبيرة كل عام.

### أحيانا تحدثنا الكاتبة عن

مكان لم تزره ولم تره، وإنما تنقل لنا ما سمعته عنه، وفي هذا إخلال بمفهوم أدب الرحلات

وخلفت صناعة السياحة والسفر أنشأ أخرى منها المهنوعات السياحية والأدلة الإرشادية التي تطبع في كتب أو في أسطوانات مدججة، ونشطت المواقع السياحية على شبكة الإنترنت، وغير ذلك من الأنشطة الاقتصادية والإنسانية التي